

سيمياءيات جون كلود كوكي

ترجمة :د.حبيب بن مالك



جامعة تلمسان

ملخص:

يشكّل هذا المقال مدخلا يسعى الباحث من خلاله لعرض أهمّ التوجّهات السيميائية (السيمولوجية؟) المعاصرة، مع العلم أنّ مهمّة كهذه لا تبدو -مثلما سنرى- بالسهولة التي يمكن للمرء أن يتصوّرها في ظلّ التداخل ولكن أيضا التنافر القائم بين هذا التيار و ذاك حينما يتعلّق الأمر بمنظور المقاربة النظرية للموضوع السيميائي. فالمسألة إذن في هذا السياق إستمولوجية بامتياز، تبرز لنا السيميائية في إطاره كحقل معرفي هلامي لا زال يبحث عن دواعي وجوده ذاته، و تضطرّ جون كلود كوكي، بهذا التفكير، إلى رفع عدد من الملاحظات التحليلية حول جملة من المفاهيم الأساسية من قبيل المعنى و الدلالة و الجملة و الإيزوتوبيا والخطاب و الفاعل و حول علاقة هذين الأخيرين ببعضيهما من جهة البعض وبالتاريخ من جهة أخرى. و كذلك حول إمكانية التوصل إلى نموذج نظري بيعلمي وكشفي بالمرّة مؤهل لاستيعاب مسلّمتي المخائنة و التعالي وانفتاح النصّ وانغلاقه.

Abstract

This paper is a prelude through which we tend to expose the most important contemporary trends of semiotics (semiology?), keeping in mind that such a task does not look - as we shall see - as easily as one may perceive in light of the interference, but also the dissonance between one trend and another, mainly when the matter is linked to the perspective of theoretical approach to the subject of semiotics. The issue, then, in this context, is basically an epistemological one, that highlights semiotics as a field of glutinous thought which is still looking for reasons of his existence.

This context has urged Jean-Claude Cookie, to raise a number of analytical observations about a number of basic concepts such as meaning and significance ,sentence and isotopy , discourse and actor and about the interrelationship between these two latter concepts in a hand and between them and history in another hand . And also about the possibility of reaching a bi-scientific theoretical model, an exploratory one and qualified to accommodate both postulates of immanence versus transcendence and openness of the text versus closeness.

المقال:

السيمياءات النصية: الجمع هنا يعبر عنه كفاية، فالتعريف ليس هينا. ونحن إذ نستهل حديثنا بسلبية، سنسعى لاستيضاح العلل.

1/ سيمياءية ضد سيمولوجيا

لو أنّ كلمة "سيمولوجيا" لا تبرز ضمن النصوص الموالية⁽¹⁾، إلّا ما شدّ منها، فذلك لأنّ باحثي هذه العشرية الأخيرة استهدفوا على العموم وصف أنظمة دلالة لا أنظمة دلائل. و الحال أنّ موضوع السيمولوجيا هو بالفعل "دراسة حياة الدلائل في صلب الحياة الاجتماعية"⁽²⁾.

و لتسجيل استقلاليتهم بالنسبة إلى سوسير، و تأكيداً منهم على أصالتهم، قام الباحثون بإقحام مصطلح جديد: السيمياءية. لقد كان يحظى سالفاً، فضلاً عمّا تقدّم، برواج كبير. و مع إقراره قبيل السيمولوجيا بزمان طويل، استعمله الفلاسفة وعلماء الاجتماع و الإناسة بشكل اعتيادي.

2/ الحقل السيمائي

و للتمييز، لم تكتف السيمياءية بهذا الجهد الاستهلاكي. فامتلاكها لطبيعة تحالها معضّاة، و خضوعها لتأثيرات متعارضة غالباً ما تدفعها للاجتهاد، جعلها تلقى عناء في تطوير تخوم قارة للميادين التي تحدّها لنفسها. في المقابل، سيتعرّف القارئ، على مدى المقالات المشكّلة لهذا العدد، على القوى الرئيسية الثلاث التي تضبط ضغط الحقل السيمائي:

أ/ مشروع علمي.

ب/ نظرية للفعل.

ج/ نظرية للتاريخ.

3/ سيمياءية ضد دلالية

يتعلّق الأمر هنا بتقابل أدرجه إميل بنفست E. BENVENISTE الذي يحتفظ من ناحية أخرى بمصطلح سيمولوجيا⁽³⁾. سيتعيّن على الدّراسة السيمولوجية أن تزودنا في الحين ذاته، بمفاتيح البنية و باشتغال أنظمة التعبير بما فيها نظام اللسان. فمن و جهة نظر تصنيفية، فإنّ الواقع اللساني هو الدليل (محال السيمائي):

"الدليل اللساني يوجد في ذاته و يؤسس واقع اللسان، غير أنّه لا يحتمل أية تطبيقات معيّنة."

من وجهة نظر نظمية syntagmatique ، ثمة بعد آخر، هناك الجملة والخطاب (مجال الدلالي): " مع الدليل نبلغ الواقع الكامن للسان، فيما ترتبط مع الجملة بالأشياء خارج اللسان، و بينما يتشكّل الدليل جزئياً من المدلول الملازم له، فإنّ معنى الجملة يستلزم إحالةً إلى وضعية الخطاب و إلى سلوك المتكلّم." (4)

هذا التّمييز الذي نجد هنري ميشونيك H. Meschonnic يستند إليه بشكل خاصّ، يُهمّ ألك الذين يدرجون في تحليلهم للمضمون إشكالية للفاعل و للتاريخ (س- ب. كليمون C.-B. Clément ، س. لوكوانتر وج. لوغاليو J. Le Galliot -S. Lecointre ، إ. فوناجي I. FÓNAGY ، أ. ليلتي A.-M. LILTI).

و بالتالي، فإنّ ظواهر متفرقة على هذا النحو، كالتلفظ والمعاودة (5) anaphore والافتراض (لوكوانتر، لوغاليو) و العناصر غير القارّة للاستيهام (س.ب. كليمون) و اللّغة الشعرية والكتابة (ه. ميشونيك) و الإبلاغ الموسيقي، كلّ هذه الظواهر ستنتسب إلى الدّلالي.

غريماس يؤكّد على هذا القلب نفسه للمنظور بالنسبة إلى الموضوع الاعتيادي للسانيات، حينما يصرّح بأنّ تحليلاً ما للمعنى لا يمكنه أن ينحدر لا من كلمات للتوليف و لا من ملفوظات للتوليد، و بأنّه يتعيّن عليه أن يتموقع في مستوى الخطابات و التّصوص (من توطئة كتاب "في المعنى" du sens).

و طالما أنّه تمّ الاستغناء عن كلمة "معنى"، سنستعير لبرهة مصطلحية بنفست E. Benveniste لنقول أنّ ولوج المعنى يستلزم اللّجوء لدراسة اللّسان-الخطاب (الدّلالي) مثلما أنّ التّعريف على الدّلالة يفترض وجود لسان-دليل (السيمائي).

لكن و مع ذلك ينبغي أن لا نؤاري الحقيقة عن أعيننا، إذ لا يحظى المعنى بسمعة حسنة. و حتّى ينكشف عاره يستحسن تدوينه بالبنط العريض: المعنى، معنى. ذلك أنّه يتأرجح رائحة اصطبلات "المنطقية الوضعية" (6)، بل سجون عقلانية عتيقة (وذلك شأن البنيوية أيضاً). حتّى أنّ عديد الباحثين هنا لا يستعملونه إلّا بتحفظ أو يقصونه جملة وتفصيلاً خشية أن يوصفوا بالمثالية.

4/الخطاب السيميائي:

لندكر بأنّ أوّل عملية ينجزها السيميائي، هي التّمييز بين الموضوع الواقعي و بين موضوع المعرفة. بتعبير آخر، ينبغي الإقرار بأنّ المعنى لا يُلْتَقَط من سطح النّصّ و لكنّه يُبنى. بطبيعة الحال، ومثلما يلحّ عليه غريماس في تقديمه لسلسلة "عوالم سيميائية"، فإنّ المسلّمة الضّمّنية تفيد بأنّ العالم الإنساني معقول و

نحن نرغب باستيعابه. و من الضروري أن نضيف أنّ وضوح نصّ ما يتوقف على ذلك النصّ الآخر (الميتانص) الذي أجدنا تطبيقه عليه، و أنّ هذا الميتانص ذاته مرهون هو الآخر بنمط الخطاب النظري المعدّ من لدنا و الذي هو نفسه... الخ. يتعدّد علينا، و نحن على دراية بذلك منذ اكتشافات جوديل Gödel أن نقطع الأمر. فمن الواضح، لأجل ذلك، أنّ معرفتنا لا يسعها إلا أن تكون محدودة و ليس من الوارد أنّ ثمة حقيقة للنصّ. لم لا الحديث إذن، بهذا المعنى، عن نصّ "لانهائي" (رولان بارث ROLAND Barthes) و عن "معرفة لانهائية للنصّ" (ه. ميشونيك) وعن "دالّ لانهائي" (جوليا كريستيفا JULIA Kristeva)؟ بالمقابل لا يفوتنا أن نسجّل مغالاة هؤلاء المؤلّفين في إبرازهم لـ "اللانهاية: فالمسألة لم تعد تتعلق بمفهوم أو فكرة فحسب، بل بتميمة مسخّرة لحماية الكاتب (الناسخ) من الوهم الوضعي المتجدّد على الدوام. لنعلم ما يلي: عقب "النشوء" النصّي ليس هناك معنى و لكن "اللانهاية دالّة"، "تعدّدية لانهائية"، أي لا شيء⁽⁷⁾. فاهوة واضحة. و في تصوّر غريماس، لا تعدو "اللانهاية القراءات" عن حديث موضوعة ينزع لإلغاء إمكانية أيّ تحليل علمي للآثار الأدبية: فالقراءات الممكنة يمكنها بالفعل أن تكون 'لانهائية' غير أنّ هذه التنوّعات تنحدر فقط من أداء القراء، و مع ذلك فلا هي 'تهدم' النصّ، و لا هي 'تشكّت بنيتها'⁽⁸⁾.

و مهما يكن الاتفاق حول العمق (ليست هناك حقيقة للنصّ)، فلا يبدو في المقابل أنّ للمحلّل القدرة على أن يغني نفسه عن تقصّي البعد التفسيري الأمثل. ولتحقيق هذه الغاية عليه أن يرضى بالإلزامية مقاييس من قبيل البساطة و العمومية والتجانس (بما في ذلك التعريف البيني لجميع المفاهيم المستعملة). هكذا، و انطلاقاً من "مصدر" إلهامه "المعهود"، أي الحكايات العجيبة التي تعتبر نموذجية لو راعينا أشكالها السردية الكونية و البسيطة تحديداً، فإنّ غريماس يسعى لبناء "تمثيل طوبولوجي للسردية". ففي هذه الفقرة من السيميائية السردية و أثناء محاولته الكشف عن تنظيم الحكاية، يقف الباحث مجدداً على وضع الحدود و العوامل، و يعرف ضمن هذا المسعى القواعد التي تتحكّم في انتقال مواضيع القيمة (القيم الخلاقية) وفقاً للفواعل المدركين كـ "أحيزة" لتحويل القيم؛ و من ثمّ كانت أهمية مفعّل التحوّل و كذا إعادة تثمينه لعلاقة التبادل. يندرج هذا الجهد الفكري كلّ في صلب اختصاص التركيب، لكن يكفي فقط أن يُنظر إليه-أي التركيب- "مثلما هو، أي بوصفه تمثيل، و بكونه، في المقابل، الكيفية الوحيدة لتصوّر رصد المعنى و معالجة الدلالات".

إنّ هذا الخطاب السيميائي على وجه الخصوص هو الذي يبدو عتيقاً أو على الأقل ناقصاً في نظر بعض المساهمين في هذا العدد. فمن البديهي أنّ المرء بوسعه دائماً أن يهّم، و بشكل مجرّد، بتعويض نظرية من الصّف ن بنظرية أخرى تفوقها صلابه من الصّف ن +1. لكن ينبغي أيضاً أن يتمّ إعداد خطاب

مؤهل لتجسيد هذه الفكرة الزائدة على البرهنة. و الحال أنّ التوصل إلى نتيجة ليس مضمونا في كثير من الأحيان. ذلك أنّ الباحثين في موادنا من لسانين و علماء دلالة و سيميائيين، لا ينزعون سوى للخلط المفرط بين الجديد و بين إنتاج المعرفة. و حجّتنا في ذلك، الاستعمال المرضي للصفة حاسم لتمييز المدرسة التي يُراد إطرؤها. فكم "مرحلة حاسمة" من البحث تحلّلتها مداخلات و أعمال و مؤلفات لا تقلّ حسما، مرّت علينا في هذه السنوات الأخيرة؟

5/ سيميائية / سيميائية تحليلية sémanalyse / إدلال⁽⁹⁾

ستسمح السيميائية التحليلية، في الحقيقة، بالانتقال من سيميائية "ضيقة" أو "أولية" بتعبير س.ب. كليمون أو "ميتافيزيقية" (ج. كريستيفا)، إلى سيميائية "علمية"، وبالتالي من سيميائية "مثالية" لأخرى "مادية". بكل تأكيد، يستلزم المسار بعض التغيرات في نظرية المعرفة. فالواجب توضيح العلاقة بين الفاعل العلمي (السيميائية التحليلية ميتالسان) و بين فاعل التلقّظ و تاريخه، وبهذا الشأن يُنتظر من مقال س.ب. كليمون حول الإنكار و الإستيهام أن يقود السيميائي للتحرّي الدقيق لعلاقة الفاعل بعالمه.

"يقوم الإستيهام **fantasme** عبر وظيفته التستيرية و عبر العلاقة بين النصّ الذي يتحدث في صلبه و بين ما يثيره من مشهد، بتوزيع أدوار كلّ من الماضي التاريخي و السيرية الخيالية و الحاضر الواقعي تباعا."

بذلك نرى تشكّل موضوعين للمعرفة على الأقلّ، بما تملّيه حاجات خطاب علمي: أحدهما يوسم بالنصّ أو (الصيغة) و الآخر بالمشهد. يمكن تصوّر الأوّل كنمط قاعدة "استقرار" و الثاني كقاعدة "لاستقرار". هذا و يحيل كلاهما إلى تنوّعة مواضيع الرغبة. يتعلّق الأمر هنا بالنسبة ل س.ب. كليمون بتمييز سيتبناه جاك لاكان **J. Lacan** في شكل وصلة بين الخيال، حيّز الخصوصيات الفردية، و بين الرمزي، أي طريقة تسلسل الدّوال. و الحال أنّ فاعل الخطاب العلمي إذا كان كافيا لتحليل الجهة القارة من الإستيهام الذي لا يعدو عن ملفوظ عامّ، فهو معرّض للعجز أمام الجزء غير القارّ الشّديد الخصوصية، و كذا أمام علاقة الوصلة الجامعة لهذين العالمين. إنّ منطق الإستيهام، يعتقد س.ب. كليمون، لا يفتأ يذكّرنا باشتغال النصّ عند كريستيفا. في الحقيقة يبدو التضاعف: النصّ-الجسد **phéno-texte**، النصّ-الجنين⁽¹⁰⁾ **géno-texte** بالطبيعة ذاتها، و الصعوبة نفسها تُصادف متى تعلّق الأمر بتطويق نمط الخطاب الموائم للنصّ-الجنين. ففي حال معالجة النصّ كمسلّمة يكون الحديث وقتذاك عن خطاب استدلالي، و نكون بالأحرى أمام "كتابة" لو يمثّل النصّ ممارسة دالة أي موضوعا خارجا عن التفكير العلمي. ضمن هذا الموقع النظري، يشكّل الفاعل ما يشبه وحدة جديدة، "وحدة متناقضة، لأنّه تقلّب و ممارسة و تناقض متماسك، تناقض ليس منطقيا فحسب و لكن متنافر، كونه يتصرّف بين التّسق المادّي (الغريزي) والتّسق

الرمزي (اللغة)⁽¹¹⁾. فمن البديهي إذا أنّ بناء الخطاب الضروري لترجمة خصوصية النصّ-الجنين وخصوصية تمثيل الفاعل و التاريخ، يستلزم ترسانة مفهومية نحن أبعد ما نكون عن تجميعها. كذلك كيف لنا أن نتصوّر على الأقلّ تضاعف موضوع المعرفة و أيضا البيعلاقة بين النصّ-الجنين والنصّ-الجسد، إذا لم يكن الملفوظ المطبوع، أي "الصيغة"، "مقروءاً" إلاّ بانكشافه "ضمن النصّ-الجنين"، بل إذا كان "العمل الدالّ يشتغل باستمرار على نقطة تأرجح من النصّ-الجنين إلى النصّ-الجسد والعكس؟" [...]⁽¹²⁾. لا شك أنّ طرح المسألة من هذه الزاوية يفرض عددا هائلا من العمليات المركّبة بحيث تبدو المهمة في أقصى الحالات كتحدٍّ. و هو ما تعترف به جوليا كريستيفا:

"ينفتح أمامنا جهد عظيم: أن نعرف كيف أنّ النصوص نصّبت نفسها على مرّ العصور كعوامل تحوّل لأنظمة التفكير، و حملت داخل الإيديولوجيا تعديلات الدالّ تلك التي تحدثها لوحدها بمعية العمل المنطقي-الرياضي"⁽¹³⁾ ذلك هو رهان الخطاب النظري أولاً و قبل أيّ شيء.

لقد اتّسع لنا أن نلاحظ، من ناحية، أنّ الأزواج المقترحة تشكّل وحدة يطلق عليها تسمية الإستيهام (س.ب. كليمون)، و هي غير قابلة للتفكّك، و من ناحية أخرى، أنّ "الإدلال" ينحدر من الاشتغال المتبادل لمركّبات هذه الوحدة. ففي تصوّر كريستيفا على سبيل المثال، يستدعي إجراء الدلالة عنصري "النصّ" الاثنين، "الداخل" و "الخارج". الأوّل (النصّ-الجسد) لا يخرج عن كونه "إسقاطا" "انزياحيا" للثاني (النصّ-الجنين). ومن جهته، يرغب س.ب. كليمون، بالموازاة مع ذلك، في أن يستدلّ على حمولة العمومية و الفردانية تحديدا، اللّتين يتصّف بهما الإستيهامي المتموقع من جانبه في نقطة تقاطع الرمزي و الخيالي. و هناك من التعاريف ما يكشف لنا عن الصّعوبة:

"النصّ الإستيهامي ملفوظ عامّ، يصلح و بشيء مفارق لفاعل واحد و يقرّه مثلما هو."

مثلما نرى، فإنّ السيميائية التحليلية و التحليل النفسي يرمي كلاهما لبناء وحدات دلالية نصّية، شأنهما شأن اللّسانيات الحريصة على إبراز اشتغال الخطاب. و قد يكون مجديا لو طوّقنا العلاقات بين هذه الأصعدة الثلاثة، بل سيكون من التبصّر أن لا نستغني عن التحليل الدلالي، خاصّة و أنّ إ. بنفست انقاد إلى إعداد ما يسمّى بنموذج الإدلال المزدوج لأجل صياغة إجابة عن المسائل التي تطرحها الوضعية الإمتيازية للسان كنظام دالّ. فتتقيل هذا المفهوم من مجال اللّسانيات إلى مجال السيميائية التحليلية (و بشكل ثانوي إلى مجال التحليل النفسي) يعدّ عملية التفاضلية لا يمكن أن تخفى عنا أهمّيتها.

ثمّ إنّ ل. ألتسر L. Althusser زوّدنا، من جهة أخرى، بالمسوّغ النظري لمثل هذه الممارسات. فالمصطلح الواحد من الميتالغة، و تلك مسألة يقينية، يتغيّر مضمونه في الواقع، لو حدث و أن انتسب

كطرف أساسي لإشكالية أخرى. يمكن للموضوع الجديد يقول الباحث في الفقرة التالية، الواردة في الصفحة 33 من كتاب كريستيفا الموسوم بـ: *Sèméiotikè*، "أن يحتفظ فعليا برابط ما مع الموضوع الأيديولوجي السابق، و بوسعنا أن نعثر فيه على عناصر كانت تنتمي إلى الموضوع السالف كذلك؛ بيد أن معنى هذه العناصر يتغير مع البنية الجديدة تحديدا، التي تمنحها معناها." و يسجل ل. ألتوسر أيضا أن:

"من هذا العمل النظري الأساسي، يظفر علم جديد ما، عنوة، بالحقّ الفعلي في الاستقلالية." (14)

يبقى لنا أن نتأكد ما إذا كان عرض موضوع معرفي جديد (الموضوع السيميائي التحليلي مثلا) ينتج هنا عن إشكالية دقيقة. غير أنّ الخشية، أن تقود إحدى نتائج عملية التّقليل هذه الباحث إلى نفي نوعية البنية التّحتية اللّسانية، بأيّ شكل من الأشكال، أو إلى الاستخفاف بأطروحة بنفست التالية:

"يؤسس اللّسان-الخطاب دلالية خاصّة به، دلالة المقصود *l'intenté* النّاجمة عن توليفية 14 *syntagmation* الكلمات حيث لا تحتفظ كلّ كلمة سوى بجزء من قيمتها باعتبارها دليل." (15)

أو تدفعه إلى اختزال تعسّفي لموضوع اللسانيات في دراسة الدّليل والإبلاغ، أو باختصار، إلى استحداث صعيد لساني وحيد يوسم بـ "التّقرير"، يكون المعنى مقروءا في صلبه بشكل فوري. إنّها الأطروحة التي يرفع لفائدها لغايات سجالية ضمن مؤلّف (16) "نظرية إجمالية" (17)، لكنّها أيضا الأطروحة الوضعية التي تماثل بين "المعنى" و بين الملاحظ. فيتحوّل "المدلول" على هذا النّحو إلى ضرب مواضيع واقعية يمكننا أن نحدّد بكلّ براءة درجة "وضوحه". هكذا و بشأن ملفوظ مالارمي:

"رمية نرد لن تلغي القدر قطّ" "Un coup de dés jamais n'abolira le hasard"

تعلّق جوليا كريستيفا: "إنّ معنى هذه 'الجملة' (مع الفاعل و المحمول) واضح معناها نسبيا"، ليلي بعدئذ شرح للتّقرير: "إنّ نجاحا ما لا يستطيع أن يحول دون ما لا يمكن توقّعه [...] الخ." (18) أيّا كان إغراء و بساطة هذا الموقف النظري (ثمّة مجال لقراءات فورية) إلّا أنّنا لا نظنّه مؤسّسا بشكل صحيح.

6/ الإدلال و تعدّد الإيزوتوبيا:

يبدو أنّ مفهوم الإيزوتوبيا على نحو ما نراه مستعملا من طرف س. لوكوانتر و ج. لوغاليو و ميشال آرفيه بشكل خاصّ يستجيب على صعيد الخطاب لمفهوم الإدلال الذي أقرّه بنفست. إنّ هذه الأداة الميتالسانية التي و للتذكير ابتكرها أ. ج. غريماس *A.-J. Greimas*، يجب أن "تسمح" بتجاوز ما تواجّه به

القراءة من عراقيل بفعل الطابع التعددالي **polysémique** للنصّ المتجلي⁽¹⁹⁾. تتعلّق المسألة بالنسبة إلى عالم الدلالة الرّاعب بتميز مستويات عدّة للقراءة ثمّ بتدرّجها، بتحليل مختلف إجراءات التّوليفية الضّرورية لإرساء نظام دالّ ولاشتغاله.

ليكن إلحاحنا بادئ ذي بدء، على النّقطة التّالية:

يبنى عالم الدلالة موضوعاً معرفياً. فمما لا شكّ فيه، أنّ التعاريف الثلاثة التي اقترحتها ميشال آرفيه، من بينها

(تعريف ف. راستيه **F. Rastier** تحديداً) ما يحيل إلى العناصر الفارقة لوحدها فحسب من صعيد التّجلي:

" يُدعى إيزوتوبيا كلّ تكرار لوحدة لسانية، فتشمل الإيزوتوبيا الابتدائية وحدتين من التّجلي اللّساني (شكل التعبير و شكل المضمون). "⁽²⁰⁾ ربّما كان من الأجدى لو أزيح مصطلح إيزوتوبيا، إذا كنّا نسعى لتفادي الخلط الذي سيحدث حتماً بين صعيدي التّجلي و المحايثة، بين الملاحظ والمبني، بين نفل **redondance** وحدة متموّقة بأحد مستويات التّحليل اللّساني و بين الإيزوتوبيا بالمعنى الحقيقي للكلمة، أي نفل المقولات السيمية. "⁽²¹⁾

من ناحية أخرى، و مثلما يشير إليه ميشال آرفيه **M. Arrivé** وهو يستحضر توضيحاً لغريّماس، لا شيء يمنع من توسيع نطاق هذا المفهوم الميتالساني و من تصوّر إيزوتوبيا أخرى بمستوى التعبير تنتسب إلى النفل الصّوّيتي. و الظاهر أنّ ذلك ربّما ما يفترضه اشتغال "لسان البنية الدّلالية" عند إ. فوناجي **Fónagy** أو "الشّكل الدّخلي للقصيدة الشعريّة" و كذلك الشّان بالنسبة إلى "الدّلالية الدّاتية للتّجميعات في حزم" لهنري ميشونيك. فلو نحن نقرّ بأنّ تكرار "السّين" "s" تكرار ملائم في المقطع الشعري الأوّل من قصيدة ذاكرة⁽²²⁾:

" تتشكّل سلسلة تنتسب إلى المقطع الأوّل من [السّينات]، و تجمع الوحدات التّالية ببعضها البعض:

Sel - enfance - assaut-soleil - soie- lys- pucelle (ملح-طفولة-إطباق-شمس-حرير-زنبق-عذراء)"

فذلك لأنّنا نظنّنا قادرين على تبريره عبر اللّجوء إلى عدّة عمليات، ومن جملةّها تشكيل مصفوفة **matrice** صوتية انطلاقاً من نفل الخطوط [+صوت]، [+مهموس]، [+حادّ]، الخ. فالالتفات إلى الجناس

الاستهلاكي، و إلى التّفقية و الصّدى و إلى كلّ ظواهر الإيقاع و النّغمية يأخذ المنحى نفسه. بل سنذهب على الرّحّب إلى ما يذهب إليه إ.فوناجي بخصوص نمط من النّصوص يعكس المنظورات الإعتيائية فيستبدل "الإبلاغ الشّفوي بـ"إبلاغ موسيقي". لقد أتاح لنا تحليلنا لـ"زهور الرّعفران" Colchiques المجال لطرح فرضية مماثلة: قد يحدث ضمن اللّسان-الخطاب و أن تنوب العوامل النّغمية عن العوامل السّردية الغائبة. يقول إ.فوناجي من جهته بمقال يتمحور حول الشّفافية الفرلينية⁽²³⁾:

"يحلّ الصّعيد الموسيقي في الشّعْر محلّ الأحداث."

لو أضفنا إلى مسلّمتي ميشال آرفيه، اللّتين تعالجان إيزوتوبيا التّعبير وتعدّد إيزوتوبيا المضمون، مسلّمتين أخريين اثنتين على النّحو التّالي، فضمن متوالية معطاة:

أ. يكون تعدّد إيزوتوبيا التّعبير دائما ممكنا. ب. يكون الشّكلان اللّسانيان (التّعبير والمضمون) مؤهّلين لتبادل قيمهما⁽²⁴⁾.

سنلامس مدى تعقيد نموذج للإدلال. و يبدو أنّ ميشال آرفيه أثر إدانة هذا الطّابع المعقّد بدلا من تبسيطه.

7/ إيزوتوبيا، تقرير، إيجاء

سوف لن نعود هنا بإسهاب للتّقابل إيجاء/تقرير الذي سبق و أن عاجله ميشال آرفيه بتبصّر في مؤلّفه الموسوم بـ"لغات جاري"⁽²⁵⁾. لنقل بكلّ بساطة أنّ الإيزوتوبيات الإيجائية من منظور النّصّ - الإحالة⁽²⁶⁾ ستكون متعدّدة، فيما تكون الإيزوتوبيا التّقريرية واحدة على وجه الاحتمال. بكيفية مماثلة، و في خضمّ معارضتهما بين التّلّفظ و الملفوظ، يخلص الباحثان س.لوكوانتر و ج.لوغاليو إلى مضاهاة القيم التّحقيقية للتّلّفظ illocutoires بإيجاءات:

"إنّ تغيير وضعية الخطاب، لا ينتج عنه مدلول زائد و لكن نقل للمدلول."

ربّما سيكون مفيدا لو أعدنا تأويل هذه الطّواهر من وجهة نظر مزدوجة. فعلى هذا النّحو يتعيّن على الإيزوتوبيا الإيجائية أن لا تبرز لنا متموقعة إلّا بصعيد اللّسان-الخطاب وحسب. لنضرب مثلا بسيطا يتعلّق بالقول المأثور الذي حلّله أ.ج.غرماس:

أهلا نظارات، وداعا بنات⁽²⁷⁾ Bonjour lunettes, adieu fillettes

فالإيحاء، سيقال لنا، يتعلّق "بتحويل المدلول من حيّز دلالي (ذلك الذي قد يتموقع فيه بحسب الدّال) إلى آخر." و في حالة قولنا المأثور المشار إليه، فإنّ "المدلول لا يوجد في صعيد دلالة نظّارات أو بنات" (28)، ومعنى القول يوجد حيث ترد الاعتبارات حول الشّباب أو الشّيخوخة. (29)

لكن من ممّا لا يرى أنّنا هنا أمام تدحرج من السّيميائي إلى الدّلال؟ من دلالة الوحدة-الكلمة التي تنضمّ إلى الكلمات الأخرى عبر التّسلسل، إلى معنى الوحدة-الخطاب الذي يخضع لقواعد أخرى غير التّسلسل، كالتّوليفية مثلاً. في هذه الحالة، فإنّ العبور من التّقرير إلى الإيحاء لن يعدو عن كونه شيئاً آخر سوى انتقالاً من الجرد إلى الملموس. من التّمودج العامّ للنحو إلى التّمودج الخاصّ للجملة. بتعبير آخر، سيشير الإيحاء إلى المسار العادي لإنتاج المعنى على صعيد اللّسان-الخطاب، والتّقرير إلى المسار العادي للدّلالة على مستوى اللّسان-الدّليل.

إذا كان سيسمح مفهوم الإيحاء لميشال آريفيه بالإصرار على تشعّب النّصّ الأدبي، فثمّة اقتراحات أخرى تخصّ وضع الإيزوتوبيات الموحى إليها: فهي مستقلّة ("لا شيء داخل النّصّ يهيمن على شيء") و غير منتظمة ("ليس هناك مركز للنّص"). سيكون الإدلال بالتّالي شديد الانتشار لاسيما و أنّه لا يبدو ينتظم في أي جهة داخل النّصّ. لكن يبقى للباحث بالمقابل أن يشكّل موضوعاً للمعرفة: التّناص *intertexte*. فذلك شكل مراعاة للمسلّمة اليامسلافية القائلة بأسبقية المُنَيّ على المَوْعُطِ (30).

و الحال أنّ التّناصيّة *intertextualité* لا تخرج عن كونها "مجموعة العلاقات التّناصيّة التي تتجلّى في صلب النّصّ الأدبي." (31) ففي هذا اللّجوء إلى ما ليس هو نفسه تماماً و لا هو أيضاً الآخر تماماً (يحيل النّصّ إلى تناصّ يحيل بدوره إلى... و هكذا دواليك) نتعرّف على صعوبة سبقت الإشارة إليها آنفاً. لقد كان حديثنا عن النّصّ-الإحالة؛ فالتّعريف كذلك تتشابه ببعضها البعض، لتكتسب امتداداً أكثر فأكثر اتّساعاً، وتشكّل على هذا النحو سلسلة نظرية لا نهاية لها.

عند قراءتنا لمشيال آريفيه، يبدو أنّ الموضوع الذي سيبنى (التّناص) يفلت من سلطات المحلّ، سيفلت منه بكلّ تأكيد و كأنّ الأمر يتعلّق بضرب من المواضيع-الورطة. مرحلة بحث؟ أو عيب بدئي؟ بجميع الأحوال، نحن بعيدون عن البنيوية المنتصرة التي كانت فيما مضى تسخط كثيرا الفلاسفة و مؤرّخي الأدب.

8/ الفاعل و الإدلال

ليس الإصرار على شروط إنتاج الخطاب سوى كيفية أخرى لفضح هشاشة معرفتنا. غير أنّ الاهتمام، هذه المرّة، سينصبّ أقلّ على الخطاب ذاته منه على فاعله. فالواجب و لا ريب أن نميّز، ضمن سؤال مسبق،

أسوة بما يقوم به س.لوكوانتر و ج.لوغاليو عقب بنفست وآخرين، بين التلّفظ المنطوق و التلّفظ المكتوب. فالوضعية هنا من الاختلاف فعلا، بحيث لا يمكن لفاعل الخطاب أن يكون هو نفسه. لا شك أن ثمة رؤية جامعة: يسجل س.ب.كليمون في دراسته للاستيهام أن "تأويل «الحالة» وتأويل «الكتاب» يوجدان، بالنسبة إلى المحلل، في المستوى ذاته من التدخل النظري". و على الرغم من ذلك فإنّ حالات شديدة الاختلاف يتعدّد اعتبارها متكافئة بدون تكلف كبير. و هي ذي بعض الأمثلة:

أحد هذه الأمثلة، ذو الحمولة العامة، يسوقه لنا كلّ من س.لوكوانتر و ج.لوغاليو:

إنّ اشتغال الذاكرة، في حالة خطاب مكتوب، يرتقن بعمق إلى التخوم المادية للمرجع برمته، أي المدونة (و هو المفهوم الذي يتبنّاه كذلك أ.م.ليلتي).

المثال الآخر في منتهى الخصوصية:

"الألعاب و الأقنعة يجيزها تسييج النصّ و مزية ديمومته."

فحينما يصرّح النّاسخ: "أنا أكتب رواية"، فإنّه يقوم بترسيم خطابه (ج.ل.أوستن J.L.-AUSTIN) أو بتعبير آخر، يجعل القارئ ينتبه إلى أنّه بصدد احتلال موقع بالنسبة إلى سنن اجتماعي-تاريخي ما، سنن يعتزم احترامه أو تغييره أو "قلبه". و في تصوّر س.لوكوانتر و ج.لوغاليو فإنّ "ما يحدّد القيم التّحقيقية التي تخضع لها مخاطبة معيّنة، هي بوجه خاص العلاقة التي تنشأ بين قراءة النصّ التاريخي الممارسة من لدن النّاسخ و بين عملية التّحويل التي ينجزها انطلاقا من تلك القراءة". هذا بالإضافة إلى أنّه باستخدامه لتلفظ أدائي و بقوله "هذا ما أفعله"، يمنح النّاسخ نصّه وضعاً لازمياً. و أيضاً عبر إدراجه للـ"أنا" الذي لا يُلفظ إلّا في الزّمن الحاضر، فإنّ "المعنى المعلن عنه و الذي هو دائما في المتناول، يتأبّد ضمن استعداد مستديم لإعادة إنتاجه الذاتي".

هذا المنظور السّجالي، التّاريخي و الفردي معا، الشّخصي و اللاشخصي بالمرّة، لا يجله هنري مشونيك، بل على العكس من ذلك تماما، بما أنّه يتصوّر اللّغة الشّعريّة كـ"ممارسة للتّناقض"، كتوتر بين بلاغة أصلية ولسان مؤرّخ ثقافيا و بين هيئة خطاب مرجعيّاته هي أنا-هنا-الآن. فكلّ قصيدة "إذا كانت كذلك، هي تلك الممارسة لـ'الحرية' في استكشاف العلاقة فردي-جماعي التي تمثّلها اللّغة الشّعريّة". إنّها، تحديدا، تركيب جدلي بين فاعل الكتابة ("من يكتّب يُكتّب") و فاعل القراءة ("من يقرأ قرأ")⁽³²⁾. فالنّصّ، أي الدّال هو ما يُعاد من خلاله تشكّل الوحدة بين الفواعل. لو نعود للمثال المقترح سالفا عن سلسلة السّينات في المقطع الأوّل من قصيدة "ذاكرة"، ربّما سنقول أنّ كلّ فاعل ينجز في حينه عملا نوعيا و لكن مشابه لو صحّ فعلا

، مثلما يذهب إليه هنري ميشونيك، أنّ تظهر هذه السلسلة "ضمن تلك الدلالية التعمية يحدّد فاعلا ما كلغة شخصية-لاشخصية". فالخطّ الصّغير في هذه الأزواج، أو بالأحرى خطّ الوصل (فارديناوند دي سوسير Ferdinand de Saussure كان هو الآخر يكتب: الفكر-الصّوت) يدعوننا لأن لا نفصل بين حدود وحدة مرّكبة.

لغة شخصية – لاشخصية:

قد يعني ذلك أنّ "أنا الكتابة صار على إثر تحوّل مبتكر "أحدهم"؛ "أنا يساوي أحدهم" يقول هنري ميشونيك⁽³³⁾؛ بالموازاة مع ذلك، فلقد صار النّصّ ("ما يمكن إعادة لفظه بشكل غير متناه، مع تخصيص تاريخي يعدّ في كلّ مرّة متغيّرة لثابتة ما"⁽³⁴⁾) "مصدر لذّة لآخرين" بتعبير فرويد Sigmund Freud.

متعة النّصّ؟ معرفة النّصّ؟ في الواقع نعلم النّزّ القليل عن "الدّال". فالإيقاع مثلا، الذي يشكّل الموضوع الرّئيسي لمقال هنري ميشونيك المهمّ، يعدّ "دالا أقصى"، و هو أيضا "أصعب القوالب أدركة بالنّظر إلى أدوات تفكيرنا"⁽³⁵⁾.

لا شك أنّ النّصّ، على وجه التّحديد، يمثّل بالنّسبة لنا محكّا، و نحن ننتظر نماذج تجعل ما نمُنّحه حسّيا معقولا. و اليوم، ما ينبغي أن يُقلق السيميائي (السيميولوجي، عالم الدّلالة، عالم الشّعريّة... لا يهمّ الاسم كثيرا)⁽³⁶⁾ هو الانزياح المفرط الذي يفصل بين النّظرية المتعدّدة والثّرية و بين التّطبيق الرّديء، في أغلب الأحيان، الذي ينبغي أن يؤكّدها.

لنختتم حديثنا بأمنية: حبّذا لو يتفوّق الخطاب العلمي (البرهاني)، على الأقلّ مرحليّا، على الخطاب النّظري و أن نرى أخيرا تفعيلا لنظريات ترهقنا أحيانا.

- ¹ - إشارة المترجم: نلفت عناية القارئ إلى أنّ هذا المقال هو ما نستعمل به ترجمة جميع ما تبقى من المقالات المشكلة لهذا العدد.
- ² - Dictionnaire de linguistique, Larousse, 1973, art « sémiologie »
- ³ - محاضرة صدرت تحت العنوان « La forme et le sens dans le langage » « الشكل و المعنى في اللغة » في مجلّة Langage ، العدد II ، 1967 ، La Baconnière, Genève, Neuchâtel.
- ⁴ - المرجع ذاته، ص 36
- ⁵ - إشارة المترجم: يتعلّق الأمر هنا بظاهرة بلاغية و أيضا نحوية يتكرّر فيها التنظيم أو الكلمة في بداية ملفوظات متتابعة، و يكون الغرض من هذه العملية تفخيم العنصر المكرر... الخ (يرجى بهذا الخصوص مراجعة المادّة anaphore بالمعجم الموسوم ب: " dictionnaire de linguistique"). هذا، و على غرار المصطلحات معظمها الواردة في المقال، و بشيء من التّحقّق المنهجي ، اعتمدنا في ترجمتنا لهذا المصطلح على قاموس اللسانيات لصاحبه عبد السلام المسدي في حدود ما يتوفّر عليه من مداخل معجمية.
- ⁶ - العبارة لـ إ. رودينسكو E. Roudinesco ؛ و المقال أحال إليه ميشال آريفييه M. Arrivé ، La Pensée ، أبريل 1972، ص 57.
- ⁷ - راجع كتاب Sèméiotikè لجوليا كريستيفا، باريس، منشورات seuil ، 1969 ، الذي أشار إليه س.ب. كليمون.
- ⁸ - Essais de sémiotique poétique, Larousse, 1972 - ص 18
- ⁹ - إشارة المترجم: تبنيّا هذا المصطلح كمقابل للكلمة الأصلية "signifiante" بالاعتماد على قاموس اللسانيات لعبد السلام المسدي.
- ¹⁰ - إشارة المترجم: اقترحنا هذه الإمكانية الترجمية المصطلحية بشكل فرضي مع مراعاة الإحالة الدلالية للمفهومين phéno-texte و génio-texte عند السيميائية جوليا كريستيفا.
- ¹¹ - 344. Semiotica, V, 1972, 4, ص.
- ¹² - èiotikémè, 280 ص.
- ¹³ - المرجع ذاته، ص 286.
- ¹⁴ - Le Capital, II, Maspero, 1968, p. 22
- ¹⁵ - إشارة المترجم: جاء اقتراحنا لمصطلح توليفية كمقابل لـ syntagmation اعتباريا فقط سعيا منّا لتمييزه عن مصطلح توليف combinaison. فبينما يحيل هذا الأخير إلى المسار الذي تنشأ عبره العلاقة بين وحدة لسانية ما مع وحدة أخرى، فإنّ المفهوم الأوّل يحيل في نطاق الدلالية إلى نتيجة هذا المسار .

¹⁶ – المرجع السابق، ص 39

¹⁷ – 1968, Le Seuil, ص 319.

¹⁸ – إشارة المترجم: "نظرية إجمالية" Théorie d'ensemble مؤلف جماعي لفريق tel quel ذي التوجهات الأدبية و الفكرية و التقديرة¹⁹ – Essais de sémiotique poétique, ص 229.

²⁰ – المرجع ذاته، ص 16، عن ميشال آريفييه.

²¹ – Essais de sémiotique poétique، ص 82، عن ميشال آريفييه.

²² – و ذلك ما ينبغي الوقوف عليه: فمفهوم الإيزوتوبيا حينما لا يكون متموقعا بصعيده العملياني يثير سوء فهم كبير. على هذا النحو، يعتقد الباحث بور آج براند Per Aage Brandt ، ضمن مقال حديث له، أنه اكتشف تناقضا في نصّ "الدلالة البنيوية"

Sémantique structurale (ص 96) حيث يتصور غريماس إيزوتوبيتين اثنتين، واحدة "دلالية" (الجديرة لوحدها بمسماها، يقول أ. براند) و الأخرى "سيمولوجية". و الواقع أنّ التعريف التالي: "نسيج نافل من المقولات السيمية" (ص 276 من Du Sens) يستوعب الإمكانيتين. هذا و تفصل القاعدة المصنفة classématique الصور السيمية إما بالصعيد "السيمولوجي" (مقولة التلقي الخارجي extéroceptivité و البعد العملي) و إما بالصعيد الدلالي (مقولة التلقي الداخلي intéroceptivité و البعد الأسطوري)، راجع كتاب Essais de la théorie du texte منشورات Galilée، باريس، 1973، ص 198 .

²³ – إشارة المترجم: و هي قصيدة للشاعر آرثر رامبو arthur rimbaud 1891/1854 نظمها سنة 1872 سنة و شكّلت موضوع بحث غاية في الأهمية لهري ميشونيك و موسوم بـ "Le travail du langage dans « Mémoire » de Rimbaud".

²⁴ – إشارة المترجم: نسبة إلى الشاعر الفرنسي بول فرلين paul verlain 1896/1844

²⁵ – ينظر العمل الذي قمنا به حول "زهو الرّعفران":

1972 de Guillaume Apollinaire
sémantique du discours poétique, les colchiques

²⁶ – Les langages de Jarry- essai de sémiotique littéraire, Klincksieck, Paris, 1972.

²⁷ – إشارة المترجم: النصّ-الإحالة مقابل إقترحناه للمصطلح الفرنسي texte-gigogne ويشير إلى مجموعة نصوص متداخلة، يخفي الواحد منها – و يحيل إلى- نصّا آخر و هكذا دواليك.

²⁸ – إشارة المترجم: حرصا منا على مجازة تفكير الكاتب في هذا المستوى من المقال، و حتّى يستوعب القارئ ههنا عناصر البرهنة في سيرورتها الأصلية دونما تغيير، تبّينا هذه الترجمة الدلالية، مؤقتا، للقول المأثور.

²⁹ – إشارة المترجم: و تأسيسا على ذلك، نحن نرجّح الإمكانية الترجمية التالية للقول المأثور، فهذه الاعتبارات السيميائية ينبغي أن تأخذ في الحسبان: "أهلا شيخوخة وداعا فتاة".

³⁰ - Du sens, ص 310.

³¹ - Les Langages de Jarry, ص 28 ,

³² - المرجع ذاته، ص 27

³³ - Pour la poétique II, Gallimard, 1973, ص 47

³⁴ - المرجع ذاته، ص 55

³⁵ - الصّفحة نفسها

³⁶ - المرجع ذاته، ص 48